٢ـ التنـــاقض
فى كتاب النثر الفنى
للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

إن الأمثلة التى ضربناها لتناقض صاحب الكتاب لا تمثل كل مظاهر فساد التفكير الفاشى فى الكتاب ، وليست هى كل أمثلة التناقض فيه على الرغم من أن أكثر الكتاب تراجم ونصوص فى كثير منها طول ، وهذه وتلك تقى بطبيعتها صاحب الكتاب أن يظهر عيوب تفكيره اللهم إلا إذا تطوع بالتعليق

فمن أمثلة وقوعه فى التناقض حين يأخذ فى التعليق وهو بترجم لرجال القرن الرابع ما وقع فى كلامه على ابن شهيد ؛ فقد روى لابن شهيد رأياً يناقض صريح رأى زكى مبارك فى الأسلوب ، وأقره على ذلك الرأى فهدم بذلك رأى نفسه وتناقض من حيث لا يدرى . روى له فى صفحة ٥١ من الجزء الثانى قوله : « إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو فى الكلام ، فإذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر وطابت المخابر » إلى آخر ما روى له . ثم علق عليه بقوله : « وهذا كلام جيد ، وأجوده ما نص فيه على أن للحروف أنساباً وقرابات تبدو فى الكلام ؛ فإذا جاور النسيب النسيب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة » وليس لتعليقه هذا معنى إلا أنه يقر للأسلوب بما أنكره مراراً من قبل . فإن تناسب الحروف من صميم الأسلوب أو هو الأسلوب صرفاً ، لأنه يتعلق باللفظ والصيغة دون المعنى . فهذا نص لا يستطيع صاحب الكتاب تمحلاً ولا تأويلاً له ، يضاف إلى ما ناقض به نفسه سابقاً فى أمر الأسلوب ، وينقض عرضاً كل ما كتب عن أسلوب القرآن ، لأن القرآن الكريم هو المثل الأعلى لهذه الظاهرة البلاغية التى نبه إليها ابن شهيد ، وأقرها واستجادها زكى مبارك فى غفلة من ذاكرته وهواه . على أن هناك نصوصاً أخرى له غير التى سبق ذكرها ينقض بها مذهب نفسه فى الأسلوب وإنكار مكانته قد تأتى لبعضها مناسبة فنذكره

ومما جاء فيه صاحب الكتاب بقول مختلف استقامة ألسنة الأعراب . فهو يقول فى صفحة ٥٥ من الجزء الأول : « وأرى من المضحك أن يظن أن العرب لم ينتبهوا إلى وقوع اللحن فى لغتهم إلا بعد الإسلام ، وأن اتصال العرب بالأعاجم هو الذى رماهم باللحن ، كأن لغة العرب بدع من اللغات لا يلحقها تغير ولا تبدل ، وذلك رأى واضح البطلان » وهو هنا يخلط بين اللحن وبين التغير الطبيعى الذى يطرأ على اللغة بالتدريج فى الدهر الطويل والذى نشأت وتنشأ عنه اللهجات ، والذى لا يمكن أن يعد من اللحن بحال . لكن لا علينا ، فنحن هنا لا ننظر فى صحة نتائجه ، ولكن فى اتساق تفكيره ؛ إذ النتائج قد يرجع بطلانها إلى فساد المقدمات مع اتساق التفكير أو إلى فساد التفكير مع صحة المقدمات ، كما قد يرجع طبعاً إلى فسادها معاً . فلتكن مقدمات صاحب الكتاب ما تكون أفهو متسق التفكير ؟

لقد أشار إلى هذه النقطة فى موضعين آخرين على الأقل . أشار إليها عرضاً فى صفحة ٥٨ من الجزء الأول حين أراد توكيد تأثر نثر الصدر الأول بالمدنيات الأجنبية . قال : « ولا عبرة بما عرف عن فريق من العرب من الحرص على تربية أبنائهم تربية عربية صرفة ، فإن هذا لم يكن يراد به صرف الشباب العربى عن فهم المدنيات الأجنبية ، وإنما كان يراد به حمايته من العجمة التى كانت تعيب الأرستقراطية العربية ، وتجعل صاحبها موضع السخرية بين معاصريه » وهو بهذا يشير طبعاً إلى ما هو معروف عن العصر الأموى من إرسال بعض الأمراء والخلفاء أبناءهم إلى البادية لينشأوا فيها على استقامة اللسان والسلامة من اللحن . لكن اقرأ الآن له من صفحة ٢١ من الجزء الثانى : « فإننا نرتاب فى سلامة الأعراب من اللحن والغلط ، ونرى أنهم قد يلحنون كما يلحن المولدون » ! إذن ففيم كان إرسال الأبناء إلى البادية حماية لهم من العجمة التى كانت تعيب الأرستقراطية العربية ؟ لقد كان ذلك عبثاً إن صح رأى صاحب الكتاب فى أن الأعراب قد يلحنون كما يلحن المولدون . ولو وقف قول صاحب الكتاب عند هذا لكان

الخلف خفياً بين طرفى أقواله الثلاثة وبين أوسطها ، ولجاز أن يلتمس له شيء من عذر ، لـكنه ـ وهذا موضع العجب ـ علق على قوله الثالث فى الهامش بما يأتى :

« ويجب أن نذكر أن الشعر الجاهلى والأموى كان يجرى على قواعد من النحو لم تأخذ صيغة نهائية فى التحديد والترتيب ، كما اتفق ذلك فى العصر العباسى ؛ فأغلاط الجاهليين والأمويين ليست أغلاطاً بالقياس إلى لغتهم هم ، وإنما هى أغلاط بالإضافة إلى اللغة التى حدد قواعدها النحويون » ! إذن فلم رميهم باللحن حين لا لحن ما داموا كانوا ينطقون طبق لغتهم هم ، وافقت نحو العصر العباسى أو خالفته ؟ إن هـذا الرجل لا يدرى أنه بقوله هذا قد نفى تطرق اللحن والعجمة إلى الأمويين فى الوقت الذى ينسب فيه الجاهليين إلى اللحن فى صلب كتابه ، ولا يدرى أنه بجعله الشعر الجاهلى والأموى يجرى على نحو رجراج كالذى يدعى ويتوهم بصطدم بالسبب الذى من أجله زعم أن نشأة علم النحو قديمة فى الجاهلية ، ألا هو جرى القرآن « على نمط واحد فى أوضاعه النحوية لا يختلف فى ذلك إلا باختلاف رواته من القبائل المختلفة » إذ كيف يمكن أن يجرى القرآن على نحو واحد ولا يجرى الشعر ؟ وإذا كان القرآن لا يختلف نحوه إلا باختلاف القبائل فلم لا يكون الشعر أيضاً كذلك ؟ إن الرجل يعترف من حيث لا يدرى باطراد النحو فى لغة كل قبيلة ما دام اختلافه من اختلاف القبائل ، ويعترف بأن اللغة فى جملتها تجرى على نحو واحد ما دامت لا تختلف إلا فى المواطن اليسيرة التى تختلف فيها الرواية فى القرآن حسب اختلاف القبائل عند هذا الرجل ، وإذن فلا معنى لترجرج نحو اللغة فى العصر الأموى وانعقاده فى العصر العباسى إلا أن هذا الرجل أراد أن يأتى بجديد يخالف به علماء العربية فوقع فى خلف بعد خلف فى النقطة الواحدة وفى العبارة الواحدة ، سنة الله فى الباطل وأهله

على أنه لا حد فيما يظهر لباطل هذا الرجل ، ولا نهاية لتخبطه ؛ فقد تعرض للقرآن مرة أخرى حين ترجم لابن فارس وحاول نقد آرائه ، لـكنه ترقى فى هذه المرة فاقترح أن يفرد للقرآن نحو خاص ! إى والله ! واقرأ له إن شئت من هامش صفحة ٤٢ من الجزء الثانى : (والقرآن يجب أن يفرد له نحو خاص ، وكذلك الأدب الجاهلى والأموى ، ولغات العالم كله تعترف بما يسمى « النحو التاريخى » ونحن فى حاجة إلى ذلك النحو لتوجيه بعض ما يبدو شاذاً من تعابير القرآن) ! أفكان علماء العربية ينتظرون صاحب الفكر الفنى حتى يجىء بذلك النحو الخاص لتوجيه « بعض ما يبدو شاذاً من تعابير القرآن » ؟ وفيم كانت علوم العربية كلها إن لم تكن لفهم القرآن وتبيان ما يبدو لهذا الرجل شذوذاً فى القرآن ؟ وشذوذاً عما ذا ؟ عن نحو لغة قريش وهو معترف بأن القرآن يجرى على نمط واحد فى أوضاعه النحوية إلا إذا كان الراوى من قبيلة غير قريش ؟ أم عن نحو لغات القبائل الأخرى وهو يعترف أن لغة القرآن إنما هى لغة قريش ؟ فما الحاجة إلى نحو جديد إذا كان القرآن يجرى — وكان الأدب الجاهلى والأموى يجرى — إما على نحو لغة قريش أو على نحو لغة قبيلة أخرى فى المواطن القليلة التى تختلف فيها القبائل عن لغة قريش ؟ أمن أجل وجود نحو تاريخى للغات العالم ، يريد أن يوجد نحواً تاريخياً للقرآن ؟ إنه إذن لا يفهم ما النحو التاريخى ولا لماذا وجد فى لغات العالم . إن لغات العالم الحاضرة تغيرت بالتدريج عما كانت عليه ولو من قرون قليلة ، فلغة شاكسبير مثلاً غير لغة ماكولى ووالتر ، ولا أحسب لغة بوالو وراسين عين لغة هوجو وأناتول فرانس . والنحو التاريخى للانجليزية أو الفرنسية يبين الاختلاف الذى طرأ فيما بين ذلك على الإنجليزية أو الفرنسية ، فأى شبه بين عربية القرآن والأدب الجاهلى والأموى وبين الإنجليزية أو الفرنسية من هذه الناحية ؟ لو كان هذا الرجل يكتب عن فهم لا عن تقليد ببغائى ، لأدرك أن النحو التاريخى للغة القرآن هو نحو نشأة العدنانية عن أصلها فى ماضى العربية السحيق ، وهذا لو أمكن الوصول إليه لا يفسر ما يبدو لهذا الرجل شذوذاً فى القرآن ، لأنه لا شذوذ هناك إلا إذا كان نحو الجاهلية الأولى هو الأصل وإذن يكون أكثر نحو العربية المعروف شذوذاً ، كما إن أكثر نحو الإنجليزية أو الفرنسية الحاضرة شذوذ بالإضافة إلى نحوهما فى الماضى السحيق . فصاحب الفكر الفنى يكتب من غير علم ولا تروٍ ولا تفكير سديد ، أو هو رجل راكب فى البحث هواه (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله)

محمد أحمد الغمراوى